موقفنا من القرآن وتربيته

الشيخ عبد الرحمن الدوسري

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [البقرة: ١٢١] وقال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [ص: ٢٩] وقال: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤] وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «**إن هذا القرآن حبل الله المتين والنذر المبين والشفاء النافع عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه (لا يزيغ) فيستعتب ولا يعوج فيقوم ولا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة التردد اقرأوه فإن الله يأجركم على قراءته بكل حرف عشر حسنات لا أقول: ألم** حرف ولكن **ألف حرف ولام حرف وميم حرف**». وليست قراءته المطلوبة هذرمة ولا (ترغمًا) عن شرف مكانه وعلو رفعته إلى فن الأغاني والمطربات كما أولع أهل هذا الزمان ولا أن تقصر قراءته على المآتم كما يفعلون ولا أن يؤول تقديسه إلى أن يجعل تعاويذ يحملها المرضى والصبيان فإن الكتاب بل وكل كتاب لا يرسل لأجل نقوشه ولا لتكييف (الإصطوانة) بكلمه وحروفه وإنما ليعلم مراد المرسل منه ليعمل به فقد ضرب الإمام الغزالي مثلاً للعاصي (إذا قرأ القرآن وكرره (جعله) بمثابة من يكرر قراءة كتاب الملك كل يوم مرات وقد أمره فيه بعمارة مملكة هو نازلها أو مشغول بتخريبها ومختصر على قراءة كتابه فلو ترك تلك القراءة عند المخالفة لكان أبعد من الاستزراء والمقت) وجاءت الأحاديث بوصف أقوام يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم إنهم شرار الخلق فالقرآن دستور كامل شامل لنظام الدنيا والآخرة وصفة منزله إنه (هدى للمتقين) في عامة أحواله لأن جميع قصصه محشوة بالأحكام والعبر وللاختصار على القراء الكرام تقتصر بتذكيرهم بسورة واحدة قصيرة أودع الله فيها دستورًا شاملاً لنظام السلم والحرب وموافيًا بحقوق الإنسان ما لم يأت مثله عن المجلس الدولي الكبير العام في (سان فرانسيسكو) ولا عن منظمة حقوق الإنسان التي كفر

بها واضعها من أول وهلة بفعله المتناقض فهذه السورة التي سبقتهم بأربعة عشر قرنًا تقريبًا إلى أشرف الغايات وأكملها هي (سورة الحجرات) ومع هذا نجد بعض مديري الجامعات في العواصم العربية يرسم ويا للأسف في مجلة (العربي) للقومية نقاطًا لا يتفوه بها إلا أبعد الناس عن القرآن وأجهلم به يريد في (آخر) للقومية (أن تحقق المثل العليا الدولية) كأنه ساكن في غير هذه الكرة الأرضية لا يسمع ولا يرى ما فعلته الدول في شرق أوروبا والبلقان والجزائر وأفريقيا وفلسطين وعمان والشرق الأقصى وما أعظم خسارة المسلمين عامة والعرب خاصة بإغفالهم كتابهم وانحرافهم عنه مما جعلهم بعد السيادة والسياسة عبيدًا وسوقة في انحطاط (خض سحيق) وسبات من التقليد عميق وما أعظم خسارة العالم كله بإضاعتهم مملكة الرحمن وهدي القرآن الذي شرفهم الله به وأنزله بلغتهم الكريمة مختار لها أن تكون هي اللغة الرسمية في جميع بقاع الأرض مستجيبًا دعوة أبيهم إبراهيم عليه السلام فلنتساءل جميعًا عن (موقفنا من القرآن) الذي قال فيه منزله جل وعلا: ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ١٠] هل تلوناه حق تلاوته بإقامة حدوده وحمله إلى جميع البشرية المتعطشة إلى دين يحميها من الانحلال ويغريها بأشرف الخصال؟ هل عرفنا أنفسنا وشكرنا ربنا على هذه الصبغة فقمنا بواجبه وحققنا الذكر الحسن؟ أم على العكس سفهنا أنفسنا واستخففنا بربنا فنبذنا ذلك الكتاب ولم نعره اهتمامًا تأسيًا باليهود واشتركنا معهم في المثل السئ الذي ضربه الله لهم إذ قال: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الجمعة: ٥] بالله عليكم أي فارق بينهم وبين من ترك العمل بالقرآن وأضاع حدوده ومزقه تمزيقًا مصحوبًا بعزله عن التشريع وإقصائه عن الحكم وحرم نفسه وأهل الأرض جميعًا من الاهتداء به فلم يبلغ رسالات الله على (صورته).

أيها المسلمون إن مسئوليتنا في حمل كتاب الله مسئولية عظيمة وإنها والله من الخطورة بمكان كبير تأملوا أيها الأحباب إذا كان الذي يتلو الكتاب لمجرد

التلاوة ويعطل أحكامه مثله كالحمار فكيف حال من لا يقرؤه ولا يعيره اهتمامًا بل يراه كتابًا رجعيًّا يعتبره مدعاة للتأخر زاعمًا أنه لا يوافق حال العصر ولا يتمشى معها ويعكف بدلاً عنه على قراءة كتب الشيوعية والاشتراكية التي هي ينقضها وما تقذف به دور الطبع الحديثة من المصورات الماجنة الخليعة ويعمر دور العهر والسينمات لا من المساجد هل حال هذا شر ممن ضرب الله لهم المثل السيئ أم لا؟ وهل هو بحالته البهيمية إلا كمن قال الله فيه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾ [محمد: ١٢] لقد أثبتت التجارب أن طلب العلوم والفنون مع إهمال النفس عن التربية الدينية المحمدية لا يجدي نفعًا ولا يحل مشكلة بل يتكون منه عالم مادي لا هم له سوى النفعية والصولية بأي وجه كان وعلى أي حساب كان وما هذا التفاخر والتكاثر والانهماك بصنع ما يدحر المدنية إلا من فراغ الضمائر بسبب ابتعادها عن وحي رب العالمين يقول الله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ٣٢﴾ [يونس: ٣٢] التفتوا أيها الأحباب إلى سلفكم الصالح تجدوا أحدهم يحمله بعض سور من القرآن أصلح (ما) أفسده الفرس والروم وفتح القلوب بحفاظه على الأنفس والأموال والأعراض دون استئثار بشيء أو طمع بلقب أو طمع منصب وانظروا أهل زمانكم وما ضاع ويضيع من مال ويهتك من عرض ويراق من دم وإذا عاتبهم تتبجح بالحرية وخدمة الشعوب إفكًا وتضليلا (أما العرب المسلمون) الذين صلحت ضمائرهم بالقرآن فقد ترفعت أنفسهم عن المادة وظهرت أخلاقهم عن تسخير الشعوب والجناية على عقولهم واللعب بمقدراتهم لأن القرآن هداهم إلى العدل والرحمة والصدق والإحسان فقضوا بالحق وأطلقوا الفكر حرًا لا تقيده الأوهام المعنوية ولا تستره حجب الأباطيل التي قرف به الصحف والإذاعات في هذا الزمان، (أيها المسلمون) لقد سيطرت الثقافة الاستعمارية على (أدفعتنا) وجعلتنا بأبعد الأمم من القرآن الذي أنزل علينا في لغتنا فأحدثت فينا عصبية الجنسية التي حرمها الإسلام وشد في منعها بعد أن ضعف الدين والعلم فينا وقد بذل المستعمر جميع وسائله في تركيزها بأذهان الناشئة والرعاع لأنه يرى فيها نقض عهد الله بإتباع الحنيفية ملة إبراهيم وقطع لما أمر

الله به أن يوصل من الميثاق الإسلامي الذي يربط العربي بالعجمي والشرقي بالغربي لولا إبعادنا عن القرآن لما استطاع إلى ذلك سبيلا فالواجب على كل من يعتز بعروبته أن يجعل منها أكبر حافز على أخذ القرآن بقوة وحمله بالتبليغ الصحيح العام الشامل كما أمر الله ليكون محققا بعروبته مصدقًا انتسابه لذلك النبي الكريم ومرضيًا لربه الذي أنعم عليه بذلك وليكون مكرمًا لنفسه غير مهين لها ولا يستخف بها فإن لم يحمل القرآن حملاً صحيحًا إلى جميع المعمورة ورضي لعروبته بما رسمه لها أهل الزيغ والضلال فقد سفه نفسه ودساها بنبذه لرسالات ربه ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس: ١٠] .

وكيف يرتفع من وصفه الله بسبب قصور همته ونقص إيمانه ممن حمل رسالة ربه؟ كيف يرتفع من أبى أن يشرف نفسه بالكتاب الذي شرفه الله به فاختار (الصفة) لنفسه باقتنائه ما رسمه له أعداء الله وأعدائه، إن من جعله الله بهذا المثل السئ لا ينفعه ما يسري عليه البشر من ألقاب ولا يرتفع برفعة مركزه عن ذلك بل يأخذه الغرور (برفعة) الشأن الخلابة فيتمادى بإعراضه عن القرآن واستهجانه لوحي رب العالمين حتى يهبط إلى مثل أسوأ من ذلك وهو المثل الذي ضربه الله أيضًا لمن أوتي الكتاب وانسلخ منه واستبدله بتقديس الجنس والوطن فجعله الله بهذه النوايا بمثابة الكلب حيث قال جل وعلا: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٧] ذلك أن الشيطان له سلطان على عباد الله المخلصين له قصدًا وعملاً ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ﴾ [النحل: ١٠٠] فأخبرنا الله عمن هذا شأنه لإيلاء الشيطان به واستيلائه عليه تخلى الله عن نصره فلم يرفعه بتلك الآيات التي انسلخ عن العمل بها فقال: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٧٦] ولكنه لانسلاخه التام عن وحي رب العالمين أخلد إلى الأرض واتبع هواه فكانت رغبته ومنتهى عزيمته في الأرض تقديسًا للجنس والوطن رغبة في المادة وتعلقًا بالأنانية التي هي مصدر عبادة الهدى والغواية ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾[الأعراف: ١٧٦] وهذا المثل منطبق على أهل هذه الصفات من المعرضين

عن القرآن إلى أبد الآبدين إذ الواقع المحسوس يشيد بـــذلك ففـــي الماضـــي(؟؟؟)يقص التاريخ كثيرًا عن هذيان الذين اقتصروا عن إرادة حرث الدنيا وأعرضـــوا عن كتاب الله وفي الوقت الحاضر تكاد تصم الآذان من كثرة تهارطهم وصيحاتهم الوحشية في الإذاعات كل يدعو إلى معسكره ويشتم الفريق الآخر وإذا سكت فريق لم يسكت الآخر فهذا المثل الرائع من معجزات القرآن الخالدة إذ جميع الصـــفات الكلبية الخسيسة موجودة فيمن انسلخ عما جاء به الرسول الأمين من وحـــي رب العالمين لأنه محروم من الآداب القرآنية الجليلة فالتصقت به خســـائر الصـــفات الكلبية حتى فيما نحبذ تنزيه أقلامنا عن ذكره وبما أنه جرت سنة الله الكونية التي لا تتغير ولا تتبدل لأن أصحاب المخالفات إذا تمادوا في غيهم ولم يؤوبـــوا إلـــى رشدهم تكون عاقبتهم التكذيب بآيات الله والاستهزاء بها فإني أربأ بقومي وبنـــي ملتي من التمادي في انحرافهم عن تعاليم القرآن وتحكيمه خشية أن تحيق بهم هذه العاقبة المشينة كما حاقت بغيرهم فيكونوا من أهل هذا المثل السيء الثاني الـــذي هو أسوأ من الأول وأفظع أجارهم الله منه ووفقهم لانتهاج الخير الذي يكون بـــه مثلاً أعلى قال الله تعـــالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾[الروم: ١٠] أيها القراء الكرام لنتفكر جيدًا في موقفنا من القرآن هل هو موقف سلبي فحسب أم أن موقفنا هو موقف المنابذ له؟ فلنحـــذر أن نكون ممن ابتغى غير الله ربًا أو افترى عليه الكذب فإن الله توعد نبيـــه وحبيبـــه محمد صلى الله عليه وسلم بمضاعفة عذابه في الدنيا والآخرة إن هو ركـــن إلـــى الكفار شيئًا قليلاً في طلبهم منه افتراء شيء غير ما أوحى إليه كيف حـــال مـــن يركن إليهم شيئًا كثيرًا؟ قال تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفۡتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ لِتَفۡتَرِيَ عَلَيۡنَا غَيۡرَهُۥۖ وَإِذٗا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلٗا ﴿٧٣﴾ وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا ﴿٧٥﴾ ﴾[الإسراء: ٧٣ - ٧٥] أي لو ركنت ذلك الركون القليل الذي جـــال خـــاطرك لضاعفنا لك العذاب المعجل في الحياة الدنيا وضاعفنا العذاب الذي يعقب المـــوت من عذاب القبر وعذاب النار.

(فيا أمة القرآن) إن في هذا الوعيد الشديد دليلاً على أن أدنى مداهنة الكفار وانصياع لتقليدهم محادة لله وخروج عن ولايته وسبب موجب لغضبه وقد صدق عنه هذا الوعيد بزيادة ركوننا إليهم ومداهنتنا لهم فما هذه الكورات والنكبات المتلاحقة التي حلت وتحل بالمسلمين في كل زمان ومكان إلا من غضب الله علينا بذلك، وتنفيذه وعيده بمضاعفة العذاب في الحياة فمتى نؤوب إلى الله ونعطي القرآن حقه ليرفعنا مما نحن فيه؟ قال صاحب الكشاف (وصلت) المؤمن إذا تلا هذه الآية أن يجثوا عندها ويتدبرها فهي جديرة بالتدبر بأن يستشعر الناظر فيها بالخشية وازدياد التصلب في دين الله) (وأقول)، هذا واجب المؤمن الذي يتلو القرآن حق تلاوته كما أمره الله، ففيه ما يهيئ النفوس ويثير العزائم، ولو طهرت قلوب المسلمين من أمراضها، وأخلصوا دينهم لله لعرفوا قيمتهم وواجبهم أمام القرآن خاصة إذا تلو هاتين الآيتين: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الزخرف: ٤٣ – ٤] أليس من المؤسف المبكي أنهم عالة على غيرهم في كل شيء؟ أليس من المؤسف المبكي أن أغلب أولاد المسلمين في حاجة ملحة إلى لغات الأجانب ولو استمسكوا بكتاب ربهم وحملوه كما أمر الله لطبقت لغتهم ما بين الخافقين ونطق بها جميع أهل الأرض عن حب ورغبة فحققوا عزهم وذكرهم الذي اختاره الله لهم وكان لهم السؤدد والقول الفصل في هذه الحياة بدلاً من حالتهم المعكوسة التي (نالوا) بها ضعف العذاب في الحياة، حقًا إن من لم يرتض القرآن دستورًا بمعنى الكلمة لا بد له من ابتداع شيء أو اقتداء بشيء من وضع البشر يكون ممن افترى على الله الكذب وهو يدعي الإسلام وبهذا يكون عرضة لعقوبات الله الشرعية والفردية كما قدمنا: ﴿ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٣٨] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٥٢] لقد أورثنا سوء موقفنا من القرآن الكريم انحطاطًا عامًا في كل شيء وجعل العاطفة تسيطر علينا سيطرة لا تجري إلا على فاقد التمييز، وجعلتنا كالذي استهوته الشياطين في الأرض... يتأرجح بين صحيح المبادئ الهدامة فبلغ

بنا الانحطاط إلى أن نقلد أعدائنا في الرزائل ونقصر عن إلحاقهم في المخترعات وكسب الأسواق والنفوس حتى صرنا في (مهول) لا يجوز أن يسمى إلا بـــ(سقوط النفس)، وهذا من بعض عقوبات الله لمن أعرض عن وحيه وهداه وفي مثل هـــذا يقول الشاعر:

يا أمة ذاك ماضيها الذي عرفت *** عنه بمجد صريح غير (مؤثقب)
ماذا دهاك فقد أصبحت هاوية *** مهاوي الذي من حسن إلى عطب
ما السر أسوأ من لو سحرت به *** ماذا دهاك فساوى الأسن بالذنب
والسحر ليس له فعل ولاعمل *** يحكي انقلابك من رأس إلى عقب
قذفت بالمجد من مهدت لو انحدرت *** فيه النجوم غدت فحيمًا بلا لهب
قد انسحبت عليه شر منسحب *** بما اكتسبت إليه شر مكتسب
وبت في نوب للظهر قاصمة *** لم يذكروا منها في سائر النوب
فالجسم في شلل والعقل في خلل *** والقلب في نصب والروح في وصب
والله ليس بظلام فيظلمنا *** ولا يغير من حال بلا سبب

فيا أمة محمد صلى الله عليه وسلم عمومًا ولا من تعتز بعروبته خصوصًـــا غيروا موقفكم من القرآن إلى موقف أحسن يليق بكرامتكم ويصدق انتسابكم إلـــى هذا النبي واعتزازكم بحقيقتكم ولغتكم الحبيبة لغة القرآن الذي من قصر في حمله فهو مفرط بجميع مقدساته، ولاعن نفسه، متنكرًا لحقيقته متعرض لشكاية الرسول صلى الله عليه وســـلم إذ يقـــول: ﴿ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠ ﴾ [الفرقان: ٣٠] انشلوا أنفسكم من وصمة العار وغضب الجبار الذي أوقعنا شر موقع أمام الصهيونية والشيوعية الساحقة التي شعارها التنكيل والنهـــب والســـحب، ألا تعتبرون بالأحداث الجسام؟ ألا يلهب الخطر في صدوركم إن هؤلاء يتفانون فـــي حمل مخازيهم ويتحملون المشاق لنفث قيحهم وصديدهم وأنتم تتقاعسون عن حمل رسالة النور والهدى؟ أيها القراء الكرام إن من تتبع ما جرى ويجري فـــي بقـــاع الأرض من إضاعة الأموال وقوام البشرية في أعياد ومراســـيم شـــكلية وتســـابق التسلح القاضي على المدنية وإزهاق الأرواح وإهدار الكرامة وضـــياع العـــرض والشرف عرف أن الناس قد دفعوا ثمنًا غاليًا لإضاعة القرآن وخسروا خسرانًا لا

يجبره إلا الرجوع إلى وحي رب العالمين، وتصحيح الإيمان من جديد. فعودوا إلى حمل رسالتكم ليحق الله الحق الذي كتبه على نفسه بقوله جل وعلا: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الروم: ٤٧] ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [الروم: ٦] فإن من استمر في إعراضه ضاعف الله له عذاب الخزي في الحياة الدنيا ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [فصلت: ١٦].

إن التربية الحسنة والأخلاق الفاضلة المتزنة التي يتكون منها الجيل المثالي هي أعظم أمنية من أماني الشعوب التي تحتاج إلى الأمن والراحة من مختلف الجرائم والشقاء، هذه الأمنية لم تتحقق على أيدي فلاسفة اليونان أو مفكري اليهود الذين استقصى من مجاريهم النجسة جميع ملاحدة الإسلام من الطابور الخامس كالفارامي وابن سينا (...) الطوسي وابن رشد والكندي والسهروردي وغيرهم مما (انتبه) الثقافة الاستعمارية وأبرزت اسمه في مجال العلم والتربية في هذا الزمان وهي لم تحقق كذلك عن أيدي حكماء الصين الذين عجزوا عن تخليص مجتمعاتهم من عبودية الإمبراطور المتسمى ب(ابن السماء) ووارثيه وعجزوا عن تخليص مجتمعاتهم عن عبادة الهياكل وتقديس الأفلاك والأشخاص والأسر، بل تقيدوا بالرموز والإشارات والتأويل الذي هو تحريف لكلام الله عن مواضعه مما أولع به اليهود وعملاؤهم من (...) التافهة التي تكونت منها فرقة الباطنية والإسماعيلية والقرطمية المتنوعة والجهمية المنبثقة وأذنابها وطغاتها. فلا كتاب (الجمهورية) لأفلاطون ولا كتاب (المدينة الفاضلة) للفارابي ولا كتاب (السياسة والإشارات) لابن سينا ولا كتاب (بعد نوبيا) لتوماس مور، ولا كتاب اليهود (دارون – فرويد ماركس) ومن على شاكلتهم من تبلورت أدمغتهم بالنظريات المأخوذة. أقول: لا بهؤلاء ولا بكتبهم تحقق ما يحلم به المجتمع المثالي، وإنما تحقق بذلك الهدى والنور الذي أرسل شعاعه القرآن الكريم فأضاء ظلمات القلوب وأنار العقول والأذهان، وانطلق به محمد بن عبد الله المربي الأكبر لشق الطريق ودفع عليه صندوق المؤمنين المتراصة المتلاحمة تحمل مشاعل الخير والحضارة والحق، إن القرآن الكريم هو الذي (علم درس) وخطط وبرمج وكان للبشرية دستورًا وموجهًا

وهاديًا، ومحمد صلى الله عليه وسلم هو الذي طبق وصدق وألف القلوب حول منهاج تلك المدرسة التربوية الخالدة، لكن أقوامنا مع الأسف انصرفوا عن نور هذه الحقيقة في تطلعاتهم وتربيتهم ووسائل إعلامهم وراحوا يجرون خلف السم الزعاف الذي دسه لهم أولئك في تصانيف كتبهم وأفكارهم مما أرادوا به ضلال البشرية عامة وتفتيت قوة الخير المسلمة خاصة، راحوا يجرون خلف ابن سينا وفرويد وسلامة موسى وأمثاله ممن جذبهم الدهاء الماسوني، ليساهموا بتمزيق القرآن وتعطيل تربيته الربانية وهدايته التي لا تسمو إليها هداية ولكن مزق الشيوعيون القرآن تمزيقًا معنويًّا يعزله عن الحكم والتشريع، وإقصائه عن دوافع الحياة فإياكم أن تنخدعوا بالشعارات والألقاب بل انظروا إلى المعان واللباب لتكونوا من أول الألباب، فتسلم عقولكم وتعتصموا بحبل الله الذي هو كتابه فتحصلوا على الوحدة التي أرادها الله لكم ومن لم يعتصم بحبل الله لا بد أن يتخبط في الضلال والشقاق.

إن العابد لله لا يقرأ القرآن لأجل المزيد من المعلومات فقط، ولا لأجل تحصيل الثواب الموعود به عن كل حرف فيشرع في قراءته ويكررها دون تفهم وخشوع، ودون تصميم عن التنفيذ لأوامر الله بكل قوة وتحمس، ولا تكون قراءته بقصد الاستماع والتذوق من بلاغته وشأن المنافقين المتحذلقين من ذوي الابتعاد والشكوك في الماضي والحاضر، بل يقرأ القرآن لأجل أن يتلق كلام رب العالمين كلام الملك العلام مالك الملك المختص بالفصل يوم القيامة، اليوم الذي لا ينجو فيه إلا العاملون بالقرآن.

فعبودية الله تستلزم عبودية الصادق أن يقرأ ذلك الكتاب لقراءة الجندي والموظف الذي يقرأ كتاب رئيسه ليعمل بمقتضاه، وينفذ وصاياه متشرفًا به، إن كان مخلصًا، فعبد الله المخلص له الصادق معه، يتشرف بقراءة كتابه العزيز ووحيه الشافي المفسر له من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم. ويفرح بها أعظم فرحة، ويتلقاهما كتلقي الجندي في الميدان لتوصيات رئيسه، معرضًا عما سواها، لا يرفع به رأسًا وبذلك تحصل الطواعية لله ولرسوله، وتنحصر صلة العبد بها، وينفصل عما عداهما انفصالاً كاملاً، عن شعور إيماني عميق، منبثقًا من محبة الله

ورسوله صلى الله عليه وسلم ومنابذة ما عداهما، فرارًا من الإثم والتزامًا بقواعد المحبة وضوابطها.

وإذا قرأ عباد الله كتاب الله على هذا النحو وتلقوه بهذه الصورة انفتحت لهم كنوز العلم والمعرفة وتيسر لهم العمل به دون إحساس بأي تكليف، بل يستطيعون العمل لله، ويتلذذون به وينافسون بالتضحية في سبيله، وينساقون إلى الفداء، لأن ذواتهم تكيفت بوحي الله التي انجذبت به قلوبهم وتغلغل في شرايينهم وهناك تتفجر طاقتهم وتصيح ثقافتهم ثقافة محمدية (متركة)، (رصافة) في كل ميدان، إلى كل (صقيع) وواد، لا تقتصر على ملازم الكتب أو أعمدة الصحف والمجلات ولا تنجرف العقائد إليه والدواليب التي ترك أهلها ذات اليمين وذات الشمال حيث أراد الله من الزحف المقدس، الذي قام به أسلافنا عباد الرحمن والتي لا تزال تسعى في آثاره وبقاياه من الأرض.

هذا نتاج القرآن لمن أقبل عليه بفرح وحب وشرف وشوق، وتعاهده حتى ينغرس في قلبه وينحو في عروقه، ولقد كان السلف لا يتجاوز بضع آيات منه حتى يحفظوها ويتدبروها ويقوموا بواجبها من التنفيذ ولم يكن همهم مقصورًا على الاستكثار من قراءته كحالنا في هذا العهد لشعورهم بعظم المسئولية من الواجبات والتكاليف حتى حصلت عندهم الملكة بمن تحملها بكاملها ورعايتها حق رعايتها.

فإن هذا القرآن لم يجعله الله كتاب قصة وفن أو أدب وتاريخ إنما جعله الله ميثاقه العظيم المتين لعباده في الأرض ليكون منهاجاً لسيرهم في جميع الميادين والحياة السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية ومرجعًا وحيدًا لهم في سائر ما ينوبهم من ذلك، لا يبقى رمزًا في الخيال مجمدًا في الذهن أو محجورًا في مكان أو مقصورًا في شيء دون شيء.

والذين لا يريدون حصره في شيء من ذلك من المثقفين ثقافة عصرية مادية حسب مخطط أعداء الإسلام قد سلكوا أقبح مسالك الشرك في تنقيص الله وبخسهم لحقه وإشراعهم لسلطانه، وتأليه أنفسهم من دونه يجعل الحاكمية لغيره من البشر الذين يريدون أن تكون لهم الخيرة من أمرهم.

أقول عن هؤلاء المتلبسين بأقبح أنواع الشرك وأفظعها أنهم لا يرضون لمواثيقهم وأنظمتهم التي دبروها أن تكون خيالاً في الذهن لا وجود له في الخارج، أو يكون العمل بها مقصورًا على ناحية دون ناحية، بل ليعتبرون هذا ردة وخيانة، كما لا يجوزون لأحد من الشعوب المدنية بها أن يخرج عن طاعة واضعيها، أو يختار لنفسه منهجاً يلائمه سواها، فيعتبرونه متمردًا أو عميلاً خائنًا ومتآمرًا على سلامة الوطن أو الدولة إلى غير ذلك من التهم التي يصبون عليه بسببها أنواع العقوبات، فقد جعلوا لأنفسهم منزلة أعظم من الله، إذ جعلوا لأنفسهم ونظرهم الوضيعة كامل الإيمان والسلطة والنفوذ في كل شيء دون الله، ووحيه العزيز الذي يزعمون أنه في الضمير فقط، بالله عليكم أي شيء في الضمير لا يلهب الحماس، ولا يحرك الجوارح؟ هذا خيال لا وجود له.

وهل يقبلون من أحد دعوى وطنية في ضميره، وهو لا يعمل لصالح وطنه ولا ينطق لصالح وطنه، أم هل يقبلون من أحد دعوى إيمانه بالقومية في ضميره، وهو يسلك المسالك المخالفة لها في عرفهم العصبي؟ أو يقبلون دعوى الإيمان الشيوعية وفروعها من الاشتراكيات في الضمير دون التقيد بخططها ومواثيقها الماركسية؟ إذا كانوا لا يرضون ذلك وطبعًا لا يرضونه، فما قيمة دعواهم أن الدين في الضمير؟ أو أن العبادة تخصصت في المساجد والمعابد، أو أن القرآن جاء بشريعة ودين لعصور قديمة مختلفة أو نحو ذلك من المفتريات الماسونية.

حقًا أن ما في الضمير لا بد أن ينطق به اللسان، وتتحرك به الجوارح والأحاسيس، فإن حل حب الله ورسوله (ضاق) الضمير كان وحي الله من كتاب وسنة غذاء للقلب، ومنفعة للأحاسيس، فانشغل اللسان بوحي الله وذكره، وتحركت الجوارح إلى طاعته، وتنفيذ أوامره، وابتعدت عن موجبات سخطه بدافع وحي روحي لا مثيل له، بحيث أن الإنسان يقدر على التهرب من النظم الوضيعة، فيخالفها بشتى الوسائل، ولكن الوازع الديني من خشية الله ومراقبته والطمع في ثوابه الجزيل، والخوف من عذابه الأليم المقيم، يجعله لا يستهين بأوامر الله أو يتهرب عن تنفيذها، لما حل في ضميره من الحب والمراقبة، وعلى العكس إذا خلا الضمير من حب الله وتعظيمه، وصل فيه حب غير الله أو تعظيم غير الله

والخوف منه، انصرف إليه واستمال إلى ما يقذفه عليه وتحرك إلى ما يريده دون مبالاة بالله، كما هو المشاهد من حال أكثر هذا العصر.

ثم إنا نسأل الذين لا يحصرون الدين في الضمير نقول لهم هل تسمحون للمسلم الصحيح أن ينطق فيما يمليه ضميره، ويتحرك عما يوجهه إليه ضميره المحب لله حقيقة؟ أو تقييده به من كل ناحية على حسب ما تريدون؟ فأى قيمة لما في ضميره؟ بل أي حرية تتشدقون بها؟

إن المواقف الماركسية والدساتير الوطنية بأي صبغة صبغت لا قيمة لها، إذا كانت خيالاً في الضمير لا يظهر مفعولها ويبرز وجودها في الخارج ولكن جندت لها جميع القوى الإعلامية والثقافية والعسكرية حتى انطبقت بها الأقمعة وفرضت على الناس، وأبرز اسمها طواغيت شتى، فرضوا ألوهيتهم ونفوذهم على البشر بمختلف أنواع التسلط من فكري وعسكري، فما بال الدين يبقى أكذوبة مزعومة في الضمير؟ وما بال المسلمين يظنون متوسلين عطف غيرهم عليهم؟

إن من أعظم الواجب لتصديق حب الله وتحقيق تعظيمه في قلوبهم الخشوع لذكر الله وما نزل من الحق وتدبر القرآن بكل حب وشغف قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [محمد: ٢٤] والتعميم عن تنفيذ أوامر الله والزحف برسالاته والسعي لإعلاء كلمته في الأرض أشد مما يسعى غيرهم من أهل المبادئ العصبية، والمذاهب المادية الوثنية، فمن العار أن يغلبهم أولئك، أنهم لا يحققون عبودية الله حتى يرعوا ميثاقه الأعظم، بتنفيذ وصاياه في وحيه وإقامة حكمه، وأن يقوموا لله قومة الصادق المخلص، لا يخشون غيره ولا يرغبون سواه، فكل منهم مطالب بتحقيق شعار المسلمين قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام: ٧٩] ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣].

وكيف يتحقق هذا الشعار بدون تدبر القرآن والتزام نصوصه وتحكيمه فقط على نفسه وعلى غيره في كل ورد وصدر؟ لا بد من ذلك، وبتحقيقه يحصل البعث

الإسلامي من جديد وتحصل الوقفة الصحيحة أمام كل جاهلية، مهما انصبغت بالأسماء والألقاب، ومهما ادعت لنفسها من العلم الذي ادعاه أسلافنا من الجاهليات، إذ يقابل عباد الله خططهم بما يدفعها ويرغمها ويزهقها قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ [الإسراء: ٨١] أما الذي يتبع معهم أويؤول النصوص على وفق أهوائهم أو اكتشافاتهم أو يضرب بعضها ببعض طالبًا وراغبًا الرأفة في حياة بهيمية يذوب بسببها في بوتقتهم أو يقتصر من كلام الله على مجرد التلاوة فهذا فيه شعبة أو شعب من النفاق شعر به أو لم يشعر، وبعضهم يكون جاهلاً ناقض الإيمان، وبعضهم فيه مشابهة للذين يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظًا مما ذكروا به، أو فيه مشابهة للذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، أي مجرد تلاوة ومنهم من هو سماع للقوم الظالمين، فيه استعداد تام لقبول الكذب.

وجميع أهل هذه الأصناف مذموم عند الله كما هو صريح وحيه، فلا يكون من المحققين لعبادته بالعمل الصحيح لدينه وقد روى مسلم في صحيحه عن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين**». وفي الأثر المعروف الذي رواه إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني وقد ذكره الطلمنكي حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا بقية، حدثنا عتبة بن أبي حكيم، حدثنا عمارة بن راشد الكناني عن زياد عن معاذ بن جبل قال: يقرأ القرآن رجلان فرجل له فيه هوى ونية يفليه فلي الرأس، يلتمس أن يجد فيه أمرًا يخرج به على الناس، أولئك شرار أمتهم، أولئك يعمي الله عليهم سبل الهدى، ورجل يقرأه ليس فيه هوى ونية يفليه فلي الرأس فما تبين له منه عمل به وما اشتبه عليه وكل إلى الله لتفقهن فيه فقهًا وما فقهه قوم قط حتى ولد أن أحدهم لبث عشرين سنة ليبعثن الله له الآية التي أشكلت عليه أو يفهمه إياها من قبل نفسه – (قال يفيه)– أشهدني ابن عيينة حديث عتبة هذا .